



شْتَفْسِبِرْغ، سويسرا، ١٩٠١م

أَحَبَّتْ مارتا عادةً أَيَّامَ الأحد. كان ذلك هو اليومَ الوحيدَ الذي فيه يُغْلَقُ بابا دَكَّانَ الخياطة وتَسْتَرِيحُ ماما، فَتَرْتَدِي العائِلَةُ أَفْضَلَ ثيابها وتمشي إلى الكنيسة، بابا وماما في المقدمة، ووراءهما أخو مارتا الأكبر هيرمن، وفي آخِرِ الموكب مارتا وأختها الصُغرى أليز. وكانت عائلاتٌ أُخرى عادةً تنضمُّ إليهم على طُولِ الطريق. وكم تَرَقَّبَتْ مارتا بِشَوْقٍ صديقتها الفُضلى، روزي غلغان، لتَهبطَ التلَّ مُسرِعَةً كي تنضمَّ إليها وتسيرَ معها ما بقيَ من الطريق إلى الكنيسة الرُّومانيسكيَّة العتيقة بقناطرها المسدودة بالطَّين، وُبرِحَ ساعتها الأبيض!

اليوم، أَطْرَقَتْ مارتا رأسها، مُتَمَنِّية لو تهربُ وتختبئ بين أشجار الصَّنوبر، فيما يجتمع أهلُ البلدة لحضورِ خدمات العبادَة. إذ ذاك يسعُّها أن تجلسَ على جذع الشجرة الساقطة المُحَبَّبِ عندها، وتَسألَ الله لماذا احتقَرها أبوها كثيراً جداً وبدا مُصمِّماً على جَعْلِها تُعاني. اليوم، ما كانت لتتذمَّرَ لو طلبَ منها أبوها أن تبقى في البيت، وتشتغلَ في الدُّكان وحدها، ولا تخطو بِقَدَمها خارجَ الباب مدَّةَ أسبوع، مع أن زوالَ الرُّضوض سيستغرقُ أكثرَ من أسبوعٍ واحد.

رُغمَ آثار الضَّرْب الذي أنزَلَه بها بابا، أَصرَّ على أن يذهبَ الجميعُ إلى الكنيسة. فاعتمَرَت فَلَنَسُوَّةً محبوكة، وأبقتْ ذَفَنها إلى تحت، راجيةً ألا يلاحظَ أحد. ولم تكنْ تلكَ أوَّلَ مرَّةٍ تحملُ فيها آثارَ غضبه. فإذا اقتربَ منها الناس، تُزيحُ الوشاحَ الصُّوفيَّ، أو تُشيعُ بوجهها.

لَمَّا وَصَلوا إلى باحةِ الكنيسة، أرسلَ بابا ماما وأليز وهيرمن قبله. وأمسكَ بمارتا من مِرْفَقها وهمس في أذنها: "ستقعدين في آخِرِ القاعة".

”سُرِيْدُ النَّاسِ أَنْ يَعْرِفُوا السَّبَبَ“.

”وسأقول لهم الحقيقة. أنتِ معاقبة على تحديّ“. وغرَزَ أصابعه على نحو مؤلم، إلا أنّها أبَتْ أن تُصدِرَ صَوْتًا وَجَعًا. ”أبقي رأسكِ إلى تحت. لا داعي لأن يري أحدٌ وجهك البشع“. ثمّ أفلتتها ومضى إلى الداخل.

وإذ كافحت مارتا الدُموع، دخلت وحدها ومشّت إلى آخر صفّ من الكراسي المُستقيمة الظّهر.

شاهدت أباها ينضمّ إلى ماما. ولما التفت إلى الورا، خفصت ذقنها بسرعة، ولم ترفع نظرها ثانية إلا بعد أن قعد. ونظرت أختها أليز إلى الورا من فوق كتفها، بوجه أكثر شحوبًا وتوترًا من أن يكون لفتاة صغيرة. ومالت ماما نحو أليز من قُرب، هامسة بشيء، فأدارت وجهها إلى الأمام من جديد. أمّا هيرمن فقعد بين ماما وبابا، ورأسه يدور بمنّة ويسرة. لا شكّ أنه كان يبحث عن أصدقاء، وسيتوارى حالما تنتهي الخدمة.

مرّت روزي وجلست قُرب المقدّمة. كان لآل غلغان ثمانية أولاد، وكانوا يحتلون صفًا كاملاً من الكراسي. فالتفتت روزي نحو أمّ مارتا وأبيها، ثمّ إلى الورا. كانت مارتا مُختبئة خلف السيّد بكر الجالس أمامها. فانتظرت روزي قليلاً، ثمّ حدّقت من حول الحَبّاز ثانية.

توقّفت كلُّ همهمةٍ لما اعتلى الخادِمُ المنبر. فافتتح الخدّمة بالصلاة. واشتركت مارتا مع الجماعة في تلاوة صلاة الاعتراف، ثمّ سمعت تأكيد الخادم لرحمة الله وغفرانه. وإذ قرئ قانون الإيمان والكلمة المقدّسة، تركت مارتا ذهنها ينجرّف كالثلج الذي يهبّ عبر مروج الألب فوق شتفسبرغ. وتصوّرت نفسها باسطة ذراعيها كجنّاحين، جاعلة رُفاق الثلج يرفعها ويحملها أينما شاء الله.

ثمّ تساءلت: وأين سيكون ذلك؟

ارتفع صوت الخادم عند الوعظ. كان دائماً يقول الأمر نفسه، لكنّ يستخدم كلماتٍ مختلفة، وأمثلةً مُختلفة من الكتاب المقدّس: ”اجتهدوا أكثر. الإيمان ميّت بلا أعمال. لا تكونوا قانعين بحالكم. أولئك الذين يُديرون ظهورهم لله مصيرهم جهنّم“.

أكان الله مثل بابا، لا يرضى أبداً مهما حاولت جاهدة؟ كان بابا يؤمن بالله، ولكن متى أبدى لها الرّحمة يوماً؟ وإذا كان يؤمن بأنّ الله خلق الجميع، فأني حقّ له بأن يتدمّر بشأن كم كانت طويلة ونحيلة، وكم كانت بشرتها بيضاء، وكم كانت يداها ورجلاها كبيرة؟ لقد لعنها أبوها لأنّها نجحت في الامتحانات المدرسيّة ”وجعلت هيرمن يبدو غيبًا!“.

حاولت أن تدافع عن نفسها. وكان ينبغي أن تعرف أفضل من ذلك. ”إن هيرمن لا تنطبق عليه الأصول. فهو يُفضل أن يتنزّه في التلال على أن يُنجز فروضه المدرسية“.

لحق بها أبوها. وحاولت ماما أن تتوسّط بينهما، إلا أنه دفعها جانبًا بعنف. ”هل تعتقدين أنك تستطيعين أن تكلميني هكذا وتُفليتي من القصاص؟“ ورفعت مارتا يدها لتحمي نفسها، غير أن ذلك لم يُجدها نفعًا.

صاحت ماما: ”يوهان، لا تفعل!“

فالتفت إلى ماما وهو لا يزال مُسكًا بذراع مارتا: ”لا تقولي لي...“

”كم مرّة يجب أن نُحوّل الخدّ الآخر، يا بابا؟“ لقد تصاعد داخل مارتا شيءٌ شديد الاتقاد لما هدّد ماما.

عندئذ استخدم قبضته عليها. أفلتها فجأةً ووقف فوقها: ”لقد جعلتني أفعل ذلك. أنت سمعتها! لا يمكن أن يتساهل أب مع وقاحة في بيته!“

لم تدر مارتا أنه أغمي عليها حتى مسدت ماما الشعر عن وجهها. ”اهدي، يا مارتا. أليز تُخضّر خرقة مُبلّلة“. واستطاعت مارتا أن تسمع أليز باكيةً. ”بابا ذهب إلى الدبّاغ. لن يرجع قبل بعض الوقت“. وأخذت ماما الخرقة من أليز. وكتمت مارتا نفسها حين ربتت ماما شفّتها المشقوقة. ”ما كان ينبغي أن تُغيظي أباك“.

”إذًا، الغلطة غلطتي“.

”لم أقل ذلك“.

”أنجح في الامتحان بأعلى علامات في المدرسة، وأنال ضربًا لقاء ذلك. أين هيرمن؟ يتمشى على طريقي جبلي؟“

حضنت ماما خدي مارتا براحتيها. ”يجب أن تُسامحي أباك. لقد خرج عن طوره. لم يدر ما كان يفعل“.

كانت ماما دائمًا تلتمس له الأعذار، تمامًا كما كان بابا يلتمس أعذارًا لهيرمن. ولكن أحدًا لم يلتمس لها هي أعذارًا.

قالت ماما: ”سامحي. سبعين مرّة سبع مرّات. سامحي!“.

التوى فم مارتا إذ تكلم الخادم عن الله الأب. لقد ودّت بالأحرى لو يكون الله مثل ماما.

لما انتهت الخدمة، انتظرتُ مارتا حتى أوماً بابا لها بأن تنضمَّ إلى العائلة. فسارتُ بجانب أليز، مُطْرِقَةَ الرَّأْسِ.

”يوهان شنایدرا!“

التفتُ بابا عند سماع صوتِ السيِّدِ غلغان. فتصافحَ الرَّجُلانِ باليد، وتحدَّثا. واغتنمَ هيرمنَ فرصةَ الانشغال لينضمَّ إلى بعض الأصدقاء المتوجِّهين إلى أعلى التلِّ. وأمسكتُ ماما بيدِ أليز لما انضمتِ السيِّدة غلغان إليهم.

”أين كنتِ طوالَ الأسبوعِ؟“ تكلَّمتُ روزي برِقَّةً، والتفتتُ مارتا. فشهِقتُ روزي بصوتِ خافتٍ. ”آه، مارتا!“ وأنتُ عَطْفًا. ”مرَّةٌ أخرى؟ ما السببُ هذه المرَّة؟“

”المدرسة.“

”ولكنَّكِ نَجحتِ في الامتحان!“

”هيرمنَ رسب.“

”ولكنَّ هذا ظلم.“

رفعتُ مارتا إحدى كتفيها، وابتسمتُ لروزي ابتسامةً واهية. ”لا خيرَ في إخباره بذلك.“ لن تتمكَّن روزي أبدًا من فهم الأمر. فإنَّ أبها كان يهيمُ بها. إنَّ السيِّدِ غلغان كان يهيمُ بجميع أولاده. وقد اشتغلوا كلُّهم معًا في تسيير فُنْدُق أدلقايس، مُشجِّعين بعضهم بعضًا في كلِّ شيء. وغايظوا بعضهم بعضًا بمرحِ حَسَنِ الطبع، ولكنَّهم لم يسخروا قطُّ من أحدٍ ولا استخفُّوا به. وإذا واجهَ أحدُهم صعوبةً ما، أحاطَ به الآخرون بحبِّة وساعده.

أحيانًا، حسدتُ مارتا صديقتها. فكلُّ فردٍ في عائلةِ غلغان لا بدُّ أن يبقى في المدرسة حتى آخرَ صفِّ دراسيِّ. وسيُخدمُ الشُّبان سنَّتَيْهِم في الجيشِ السويسريِّ ثمَّ يذهبون إلى الجامعة في بيرن أو زيوريخ. وستتعلمُ روزي وأخواتها أسلوبَ الطبخِ البارِعِ وفنَّ إدارةِ بيتٍ كبيرٍ يضمُّ نحو ثلاثين غريبًا. وستُعلمُ الفرنسيَّةَ والإنكليزيَّةَ والإيطاليَّةَ. وإذا كانت لديها طموحاتٌ إضافيَّة، فما كان أبوها ليحرِّمها ذلك، فقط لأنَّها بنت. ومن شأنه أن يُرسلها إلى الجامعة مع إخوتها.

أعلنَ بابا لدى رجوعه من عند الدَّبَّاغ: ”لقد أمضيتُ في المدرسة مُدَّةً كافية. بلغتِ سنًّا تكفي لأنَّ تُشارِكي في العِبءِ الماليِّ.“

ولم يُجدِ توسُّلها إليه أيَّ نفعٍ لأجل سنةٍ أخرى بعدُ في المدرسة. اغرورقتُ عينا مارتا. ”قال بابا إنَّه يكفي أنِّي أستطيعُ أن أقرأ وأكتبُ وأحسب.“

”ولكنك في الثانية عشرة فقط، وإن كان لأحد في صفنا أن ينتقل إلى الجامعة، فأنت الأجدر“.

”لن تكون جامعة لي. قال بابا إنني انتهيت من المدرسة“.

”لكن لماذا؟“

”يقول بابا إن مزيداً من السنين في المدرسة يحشو رأس البنت بالهراء“. ويقول بابا الهراء عنى الطُموح. وقد تحرقت مراتها به. فإنها كانت ترجو، بتعلم كافٍ، أن تكون لها خيارات بشأن ما ينبغي أن تفعله بحياتها. وقال بابا إن المدرسة نفختها، ووجب أن تُحطَّ إلى حيث تنتمي.

أمسكت روزي بيد مارتا. ”لعله يُغيّر رأيه ويسمح لك بالرجوع إلى المدرسة. أنا على يقين بأن السيد شولز سيُريد أن يُكلّمه بشأن ذلك“.

قد يُحاول السيد شولز، ولكن أباهما لن يُصغي. فما إن يَعقد عزمه على شيء، فلن يستطيع أي شيء أن يُغيّر رأيه. ”لن يُجدي ذلك نفعاً، يا روزي“.

”ماذا ستفعلين الآن؟“

”بابا ينوي أن يؤجّرني“.

”مارتا!“

قفزت مارتا إذ سمعت بابا وهو يجأر. فأوما لها بحدّة عابساً كي تأتي. ولم تُفلقها روزي من يدها فيما واكتبتا عائلتيهما.

حدقت السيدة غلغان إلى مارتا. ”ماذا جرى لوجهك؟“ ورمقت بابا بنظرة غضب.

فردّ لها بابا الحاملة. ”لقد وقعت على الدرج“. ونظر إلى مارتا نظرة إنذار. ”طالما كانت خرقاء. ما عليك إلا أن تنظري هذه اليدين والرجلين الكبيرة“.

فقدحت عينا السيدة غلغان شرراً. ”ستكبر معتادةً إياها“. ووضع زوجها يده تحت مرفقها. مدت ماما يدها لمارتا. ”هلمّي. أليز بردانة. ينبغي أن نذهب إلى البيت“. والتصقت أليز بجانب أمها، غير ناظرة إلى أحد.

عانقت روزي مارتا هامسةً: ”سأطلب من بابا أن يستأجرك!“

لم تجرؤ مارتا أن ترجو أن أباهما سيوافق؛ فقد علم كم ستستمتع بالعمل لدى آل غلغان. خرج بابا عصر ذلك النهار ولم يعد إلى البيت إلا في وقت متأخر مساءً. فاحت منه

رائحة البيرة وبدا مسرورًا بنفسه جدًا. وخبَطَ بيده على الطاولة، قائلاً: ”مارتا، لقد دَبَّرْتُ لكِ عملاً“.

سَتَشْتَغَلُ عند آل بَكَر في المخبز كُلِّ صباح. ”يجب أن تكوني هناك قبل الرابعة صباحًا“. وستُضْمِي عصرَ ثلاثة أيام في الأسبوع مُشْتَغَلَةً عند آل زِمَر. إذ خُيِّلَ إلى الطَّيِّب أن زَوْجَتَهُ سَتُرْحَبُ بِبَعْضِ التَّحَرُّرِ من رعاية طفلهما الجديد المشاكس. ”وتقول السيِّدة فَخَس إنها تستطيع أن تستخدمكِ للاعتناء بخلايا نحلها. الجوُّ يبرد، وستكونُ مستعدَّةً لِجَنِي العسل عاجلاً. فسَتَشْتَغَلِينَ كُلَّ مساء ما دامتُ بحاجةٍ إليك“. ثُمَّ أَسَدَدَ ظَهْرَهُ إلى ظَهْرِ كُرْسِيِّهِ. ”وستَشْتَغَلِينَ في فندق أدِلْقَائِسِ يَوْمِينَ في الأسبوع“. وراقَبَ وَجْهَهَا من قُرب. ”لا تحسبي أَنَّكِ ستَتَنَاوَلِينَ الشايَ والكعكياتِ المُحَلَّةة مع صديقتكِ الصَّغيرة بعد الآن. أنتِ هناك كي تشغلي. هل تفهمين؟“

”نعم، بابا“. وقد شبكتُ مارتا يديها أمامها، مُحاولَةً ألا تُبَدِّي سُروَرَهَا.

”ثُمَّ لا تطلبي أيَّ شيء. ليس من أيِّ منهم. فالسيِّد بَكَر سيَدْفَعُ خَبْرًا، والسيِّدة فَخَس عسلاً عندما يأتي الأوان. أمَّا الآخرون، فسيرتبون الأمورَ معي، لا معكِ“.

دَبَّتِ الحرارةُ في أوصالِ مارتا، مُتدَفِّقَةً صعودًا عَبْرَ رَقَبَتِهَا إلى خَدَّيْهَا، ومُضْطَرِمَةً هناك كصُهارةِ البُرْكان تحت الأرضِ الباهتة. ”ألن أنالَ شيئًا، يا بابا؟ لا شيئًا البتَّة؟“

”تتالين سَقْفًا فَوْقَ رأسكِ، وطعامًا في صحنكِ. تتالين ثيابًا على جلدكِ. ما دُمتِ تعيشين في بيتي، فكلُّ ما تُحْصَلِينَهُ يَخْصُنِي شرعيًّا“. ثُمَّ أَشَاحَ بِوَجْهِهِ ونادى ماما: ”أنا! هل أُحْزِرُ ذلكَ المُسْتانَ للسيِّدةِ كَلِر؟“

”إنِّي أشتغلُ فيه الآن، يا يوهان“.

فصَاحَ بابا ثانيةً مُعْبَسًا: ”إنها تتوقَّعُ تسلُّمَهُ قبلَ نهايةِ الأسبوع! فإن لم تكوني قد أُحْزِرْتَهُ عندئذٍ، فستأخذُ شغلها إلى خِيَاطِ آخِر!“ وهَزَّ رَأْسَهُ قائلاً: ”أذهبِ ساعدي أُمِّكِ“.

انضَمَّتْ مارتا إلى أمِّهَا قُربَ الموقِد. كان على الطاولةِ إلى جانبها عُلْبَةٌ خيطانِ ملوَّنة، وعلى حَضَنِهَا صُوفٌ أَسْوَدٌ مُطْرَزٌ جُرْتِيًّا. وسعلتُ بشدَّةٍ داخلَ خِرْقَةٍ، ثُمَّ طَوَّئْتُها ودَسْتُها في جَيْبِ مِزْرَها قبل أن تلتقطَ من جديدِ القطعةِ التي تَخِيطُها. كان في وُسْعِ أيِّ شخصٍ أن يعرفَ من شُحوبِ ماما والدوائرِ السَّوداءِ تحت عَيْنَيْهَا أَنَّها مُعتَلَّة. فإنَّ رَثْبِي ماما كانتا ضعيفَتَيْن. وهذا المساء، اصطبغتُ شفتاهما بازرقاقٍ باهت. ”ساعدي أختكِ، يا مارتا. إنَّ صُداعًا آخَرَ يَنتابُها“.

كانت أليز قد أمضت المساء كله مُشْتَغِلَةً بِمُطَرِّزَتِهَا، وجبينها مُحدِّدٌ على كلِّ غرزةٍ في تركيز مؤلم. وقد ساعدتها مارتا إلى أن رجعَ بابا. تقريبًا، كان الشيء الوحيد الذي تُتقِّنه أليز جيدًا هو تخطيط الحواشي. تاركَةً لماما ومارتا أن تقوما بشغل التطريز الدقيق. وقد كافحت أليز في المدرسة مثل هيرمن، وإن لم يكن للأسباب نفسها. ففي سنِّ العاشرة، كانت أليز بالكاد تقرأ وتكتب. ولكنَّ ما افتقرت إليه في الذكاء والبراعة جرى التَّعاضِي عنه بسبب جمالها النَّادر والرَّقِيق. وقد كان سرورُ ماما الأعظم يتمُّ كلَّ صباح حين تُفرشي شعر أليز وتصفِّره، وكان أشقر فاتحًا طويلًا حتَّى الحَضر. وكان لها جلدٌ مرمرِيٌّ لا عيبَ فيه، وعَيْنان زرقاوان ملائكتَيَّتان واسعتان. فلم يكن بابا يطلب منها شيئًا، مُتفاخرًا بجمالها، مُتصرِّفًا أحيانًا كما لو كان يملك مُحمَّةً فنيَّةً لا تُقدَّر بثمن.

لقد فَلَقَت مارتا على أختها. فرَّبما كان بابا على حقِّ بشأن طالبي يد أليز، ولكنَّه لم يفهم مخاوفها المُستقرَّة في أعماقها. إذ كان لديها اتِّكالٌ شِبهُ يائس على ماما، وكانت تَعْتَرِيها الهستيريا متى دخلَ بابا إحدى نوباتِ غَضَبه، مع أنَّه لم يضربها قطُّ في غضبه طوَال حياتها. ولا بدَّ أنَّ بابا كان يريد لأليز عريسًا مُستقرًّا، ذا مالٍ ومقام.

صلَّت مارتا كلَّ مساء، طالبةً أن يبارك اللهُ أختها بزواجٍ يُعزِّها ويحميها... ويكون غنيًّا كفايةً بحيثُ يستأجرُ آخرين للطبخ والتنظيف وتربية الأولاد! فإنَّ أليز لن تتمكَّن أبدًا من النهوضِ بمسؤوليَّات كهذه.

حملت مارتا كُرسِيًّا بلا ظهر ووضعتهُ قُربَ كُرسِيٍّ أمِّها. ”السيدة كلِّر تريدُ دائمًا أشياءها مُنجزَةً أمس!“.

”هي زبونةٌ جيِّدة“. وألقت ماما بحرصٍ قِسْمًا من التَّنورة على حَضَنِ مارتا حتَّى تشتغلَ فيها معًا.

”جيِّدة ليست كلمةٌ أصفُّها بها، يا ماما. إنَّ المرأةَ طاغيةٌ.“

”ليس من الخطأ أن تعرِّفي ما تريدينه.“

”إذا كنتِ مستعدَّةً لدفعِ ثمنه“. استشاطت مارتا غَضَبًا. صحيحٌ أنَّ بابا سيطلبُ من السيدة كلِّر أن تدفعَ لقاء الشُّغل الإضافيِّ، ولكنَّ السيدة كلِّر سترفض. وإذا أصرَّ بابا، فإنَّ السيدة كلِّر ستسخطُ ”من مُعاملة كهذه“ وتهدِّد بأن تأخذ شُغلها ”إلى شخص أكثر تقديرًا لكرمي“. وستُذكر بابا بأنَّها طلبت ستَّة فساتين في السنَّة، وأنَّ عليه أن يكونَ شاكِرًا على شُغلها في هذه الأيام الصعبة. وسيعتذرُ بابا كثيرًا، ثمَّ يُضيف ما أمكَّنه إلى المبلغ الذي يُدينُ

به السيد كَلِر عن البدلات التي خاطها بابا له. وكان على بابا غالبًا أن ينتظر ستّة أشهر لتحصيل ولو دفعة جزئية. فلا عجب أن آل كَلِر كانوا أغنياء. لقد تشبّثوا بهم تشبّث الطحلب بالصخر. "لو كنت محلّ بابا، لطلبتُ جزءًا من المال قبل مباشرة الشغل، ودفع ما بقي قبل مُغادرة أيّ ثوبٍ للدُّكان".

ضحكتُ ماما ضحكة رقيقة. "أمثلُ هذه النار تصدُر من ابنة اثنتي عشرة؟" تساءلتُ مارتا كيف يمكن أصلاً أن تُنجز ماما التَّنورة في حينها. وأدخلتُ خيطَ حريرٍ أحمرٍ وودياً في إبرة وبأشرتِ الشغل في وُريقات الزهور. "ماما، لقد أجزني بابا". تنهدتُ ماما. "علمتُ، يا حبيبتي". وبسرعةٍ سحبَتِ الحِرقة من جيبٍ مئزرها كي تُغطّيَ فمها. ولما مصّت نوبة السعال، كافحتُ لأخذِ النَّفس، ودفعتِ الحِرقة من جديد إلى مكانها. "سعالك يزدادُ سوءاً".

"أعرف. لقد جاءني من السنين التي اشتغلت فيها في مصنع السيجار. ستتحسّنُ حالتي عندما يحلّ الصيف". ففي الصيف، تستطيعُ ماما أن تجلسَ في الخارج وتشتغلَ بدلاً من الجلوسِ قُربِ نارٍ مُدخّنة.

"إنّه لا يُفارقكِ بتاتاً، يا ماما. يجبُ أن يُعاينكِ طبيب". لعلّ مارتا، عندما تعمل عند السيدة زمر، تكلمُ الطبيبَ عمّا يمكن أن يُفعلَ لمساعدة ماما.

"لا ينشغلُ بنا بهذا الآن. يجب أن تحصلِ السيدة كَلِر على فُستانها!".



اعتادتُ مارتا سريعاً برنامجَ عملها. نهضتُ والظلامُ ما زالَ خارجاً، فلبستُ بسرعة، وسلكتُ الشارعَ صُعوداً إلى المخبز. وعندما أدخلتها السيدة بكر من الباب الأمامي، فاحتُ في العُرفة رائحةُ الحُبز الطازج من الفُرن. دخلتُ مارتا المطبخَ وقطعتُ جوراً لأجلِ النسُورتين (تورته الجوز) فيما السيدة بكر تخفّقُ اللبَنَ والبيضَ لأجلِ الشوكولا دِنكوشين (كعكة الشوكولا).

أعلنَ السيد بكر أن "سنصنع ماغُنبروت (كعك الزنجبيل) اليوم"، وهو يمدُّ حبلَ عجينٍ طويلاً ويُقطّعه قطعاً صغيرة. "مارتا، اغمسي هذه بالزبدة وادلكيها في القرفة والزبيب، ثمّ صُفّيها في قوالب الكعك الرقيقة".



اشتغلتَ مارتا بسرعة، عالمةً أنَّ السيدَ والسيدةَ بكرَ كليهما يُراقبانهَا. ثمَّ صبَّتِ السيدةَ بكرَ المخفوقِ الداكنِ في قوالبِ الكعكِ وناولتْ مارتا الملعقةَ الخشبيةَ قائلةً: ”هيا! العقيها حتى تنظف.“

ضحكَ السيدُ بكرَ. ”أه، انظري كيف تستطيعِ البنتُ أن تبتسمِ، يا فاني.“ ثمَّ قرَّصَ العجينَ، قائلاً: ”أنتِ تتعلمين بسرعة، يا مارتا.“ وغمزَ زوجته. ”سيكونُ علينا أن نعلمها صنعَ كعكِ الغطاسِ في عيدِ الميلادِ المقبلِ. أليس كذلك؟“

فغمزتِ السيدةَ بكرَ مارتا، قائلةً: ”وليكوشن أيضاً.“ وكانت ماما تحبُّ خبزَ الزنجبيلِ المنكه. ”وحلوى المرزبان.“ ثمَّ أخذتِ الملعقةَ ورمتها في حوضِ غسلِ الأواني. ”سأعلمك كيف تصنعين بتريلاتشن.“ وصفتِ الزبدةَ والطحينَ والسكرَ على طاولةِ الشغلِ. ”وغداً، سأعلمك كيف تصنعين كعيكاتِ اليانسون.“

ولما فُتحَ المخبزُ للبيعِ، أعطتِ السيدةُ بكرَ مارتا رغيفيَ فطورٍ أجرأةً لها. ”أنتِ عاملةٌ جيّدة.“ حملتْ مارتا الرغيفينِ إلى ماما، وأعطيتْ صحناً من خبيصِ الحبوبِ. وبعدها أنهتْ أشغالها وتناولتْ غداءً مبكراً، توجّهتْ نازلةً على الطريقِ بجوار مبانيِ المدرسةِ إلى بيتِ الطبيبِ. بدتِ السيدةُ زمراً متضايقةً لما فتحتِ البابَ. ”خُذيه! خُذيه!“ ودفعتْ طفلها الزاعقَ إلى ذراعيِ مارتا، ثمَّ أمسكتْ شالها. ”سأزورُ صديقة.“ وانسلتْ حول مارتا مُنطلقةً دونَ التفاتةٍ إلى الورا.

دخلتْ مارتا في البيتِ وأغلقتِ البابَ حتى لا يسمعَ الناسُ عويلَ الطفلِ. ومشتَ متمهّلةً، تُنشدُ ترانيم. فلما لم يُهدئ ذلكُ إفرادَ الصغيرِ، حاولتْ أن تهزه. وفحصتْ حفاضه. أخيراً ثارتْ سُخطها، فحطته على السجادة. ”هلم! ازعقِ واصرخِ حتى ينقطعَ نفسُك.“

كفَّ الطفلُ عن البكاءِ وانقلبَ على بطنه. وإذ قوَّسَ ظهره، مدَّ ذراعيه ورفسَ بقدميه. فضحكت مارتا: ”لقد أردتَ شيئاً من الحرّية، أليس كذلك؟“ ثمَّ جمعتِ اللعابَ المبعثرةَ ووضعتها أمامه. فرفسَ بقدميه أكثرَ، مُقهقهقاً ابتهاجاً. وما لبثَ أن أطلقَ صراخاً حاداً، فاتحاً ومُطبقاً يديه. ”مُدِّ يدكُ إليها! لن أعطيكِ إيّاها.“ واستطاعَ أن يتمطى بضعة سنتيمتراتٍ ويمسكُ حُشخيشةً. فصققت مارتا. ”أحسنَت، إفراد!“ ثمَّ انقلبَ على ظهره.

لما أرهقَ إفرادَ الصغِيرِ نفسه، التقطته مارتا وهزته حتى ينام. ثمَّ رجعتِ السيدةُ زمراً بعد ساعة، يبدو عليها الانتعاشُ. فتوقفتْ وأصغتْ، وقد بدتْ مذعورةً نوعاً ما. ”أهو بخير؟“ وأسرعت إلى سريره وحدقتْ إليه. ”إنه نائم! إنه لا ينام البتّة بعد الظهر! ماذا فعلت؟“

”جعلته يلعب على السجادة. حاول أن يزحف“.

عصرَ اليوم التالي، صعدت مارتا التلَّ إلى فُنْدُق أدِلْقايِس، حيث جعلتها السيِّدة غِلْغان تشتغل في نَزْع الأغطية عن الأسيِّرة وترتيبها من جديد بِشْرَاشِفَ نظيفةٍ وأغطيةٍ مُخَمَلِيَّةٍ فوق فُرُش الرِّيش. وإذ نفَّسَتْها لِمَلَّتْها بالهواء، لَفَّتْها عند أسفل السرير، ثُمَّ أَخَذَتْ الغَسِيلَ إلى المَغْسَلِ في الأَسْفَل. وقد اشتغلت السيِّدة غِلْغان معها، مُخْبِرَةً إِيَّاهَا بِقِصَصِ مُسَلِّيَّةٍ عن ضيوف الماضي. ”لا شكَّ أنَّكَ ستلتقين بعضًا مِّن لا يُعْجِبُهُمْ شيءٌ مِّمَّا تفعلين، وآخرين يكسرون أرجلهم وهم يتزججون“.

عُنِيَّت اثنتان من أخوات روزي الأكبر سنًّا بأحواض الغسل، وأبقتا قدورًا كبيرة مملأى بالماء تغلي على مَوْقِد الحطب. وأوجعتْ مارتا ذراعاها من تحريك البياضات؛ إذ كانت تدفع الشَّرَاشِفَ والأغطية إلى تحت وتبرمُّها وتقلِّبُها، ناشِرةً الطَّيَّات، ثُمَّ مُعيدةً التحريك. وعمدَت كريستين، البنتُ الكُبرى، إلى نَشَلِ شَرشِفِ بالخُطَاف، فسحبتَه وطوَّته وعصرته بشدَّة، تاركةً الماء يتدفَّق إلى حَوْضِ الغَسِيلِ من جديد. ثُمَّ نفَضَتِ الشَّرشِفَ داخِلَ حَوْضٍ من ماء الشُّطْفِ المَبْحَر.

علقَ الثَّلْج على أطرِ النافذة، ولكنَّ العَرَق كان يتقطرُ من وجهِ مارتا، فمسحته بكمِّها. ”أه!“ أقبلت السيِّدة غِلْغان، ومدَّت يديْنِ قوِيَّتَيْنِ وعريضَتَيْنِ، مُحمَرَّتَيْنِ بفعلِ سنين من العَسل. ”أريني يديك، يا مارتا“. فقلبتهما السيِّدة غِلْغان ظاهرًا على باطن، وطقطقت بلسانها. ”قروح! ما كان ينبغي أن أشغلك بهذه القسوة في يومِكِ الأوَّل، ولكنك لم تشككي. ستترجحُ يداك كثيرًا بحيث لن تتمكني من غرزِ غرزة واحدة“.

”ولكن هناك كومةٌ كاملةٌ من الشراشف يجب غسلها“.

وضعت السيِّدة غِلْغان قبضتيها على وركيها الواسعتين وضحكت. ”نعم، ولهذا عندي نبات!“ ثُمَّ طَوَّقَتْ مارتا بذراعاها. ”اصعدي إلى فوق. ستكون روزي قد رجعت من المدرسة الآن. وستريد أن تشرب الشاي معك قبل أن تنصري. وإذا كان لديك وقت، فهي تحتاج إلى مُساعدةٍ في دَرَسِ الجغرافيا“.

قالت مارتا إنَّ ذلك من دواعي سرورها.

قفزت روزي عن كُرسيِّها. ”مارتا! نسيْتُ أنَّكَ باشرتِ العملَ اليوم. أنا مسرورةٌ جدًّا بوجودك هنا! اشتقتُ إليك في المدرسة. في غيابك، الحالُ ليسَتْ كما كانت؛ فلا أحد يُجاوبُ الأستاذَ شولتز عن أسئلته الصَّعبة“.

”قالت أمك إنك تحتاجين إلى مساعدة في درس الجغرافيا“.

”أوه، ليس الآن. عندي كثيرٌ جداً أقوله لك. فلنذهب في نزهة“.

علمتُ مارتا أنها ستضطربُ إلى السَّماع عن آخرِ مغامراتِ أركِ بريختالدا. فقد أُغرمتِ روزي به منذُ اليوم الذي انتشلها فيه من جدولِ ماء. ولم يُجدِ نفعاً إخبارها بأن أركِ سبب سقوطها أصلاً. إذ كان قد تحدّاهم بعبور نهر الزُّلغ. وكانت قد عبّرت حتى نصف المجرى إذ زلت على صخرة وانزلقت على شلالٍ صغير، قبل أن يتمكن أركِ من الإمساك بها. وقد رفعها وحملها إلى الضفة. ومنذئذ صار أركِ فارسَ روزي ذا الدرع المتلألئ.

نحلّ السحابُ من الأعالي الثلجَ برقةً، مُضيفاً كثافةً على البساط الأبيض فوق شتفسبرغ. وتصاعد الدخان من المواقد لولبياً مثل الأشباح، مُتلاشياً في هواءِ العَصْرِ المعتدلِ البرودة. وبينما ثرثرت روزي بِمَرَحٍ مشتُ مارتا مُجهدَةً بجانبها. وقد غطت التراكمات البيضاءُ مروجَ الألب التي ستصيرُ بعد أشهرٍ قليلةٍ خضراءَ نضرةً ذات بقع من الزهور الحمراء والصفرى والزرقاء التي ستغري نحلّ السيّدة فحس. فأزاحت روزي الثلج عن زندِ شجرة، وجلست حيث أمكنهما أن تنظرا من مكان مرتفع إلى فندق أدلثايس وشتفسبرغ. ولو كان النهارُ صحواً، لأمكنهما أن تريا بحيرتي شلسُن ونُرسِي كلوحِ زجاجِ رمادي.

يومذاك، جعلت الغيومُ المنخفضةُ الشمسَ تبدو مثل كُرةٍ ضبابيةٍ بيضاء تُوشكُ أن تيب من على الجبال وراء إنترلاكن.

أصدرَ نفسُ مارتا بُحاراً. فلم يكن لدى صديقتها همٌّ في الدنيا إلا إن كان أركِ يحبها أم لا. وإذ زمتُ مارتا فمها، حاولتُ ألاّ تشعُرَ بالغيرة. لعلّ بابا على حقّ. ستكون هي وروزي صديقتين إلى حينٍ فقط، ثمّ تنشئُ اهتماماتهما المختلفة حائطاً بينهما. فمارتا تشتغل الآن عند آل غلغان. ولم تكنِ الصديقة التي تأتي للزيارة، أو لشرب الشاي، أو الجلوس والتحدّث، فيما تُقدّم أمّ روزي كعيكات اليانسون على صينية فضية وشوكولا ساخنة في فناجينَ حَرَفِيَّةٍ صينيّةٍ فاخرة. لقد كان كلُّ شيءٍ على وشك أن يتغيّر، ولم تُطقْ مارتا احتمال ذلك.

فإذ أخرجها بابا من المدرسة الآن، لن تكون مؤهّلةً إلا لأن تكونَ خادمة، أو لتعتني بطفلٍ مشاكسٍ عند أحدهم.

كان ممكناً أن تُساعدَ ماما في خياطة ملابس النساء، ولكنّ ماما كسبت مالا ضئيلاً جداً بالنظر إلى عدد الساعات التي أمضتها مُشتغلةً لنساءٍ مثل السيّدة كِلي التي توقعت الكمال

لقاءً أجريّ زهيد. ثمّ كان الجزدان بيديّ بابا، وهو تشكّى بمرارة قلّة ما يملكونه، مع أنّه استطاع دائماً أن يجد ما يكفي للبيرة.

وضعتُ روزي ذراعها حول كتفَيّ مارتا. ”لا تحزني كثيراً!“

وقفتُ مارتا فجأةً وابتعدتُ قليلاً. ”كان الأستاذ شولتز سيعلّمني الفرنسيّة. وكان ممكناً أن أتعلّم اللاتينيّة أيضاً. لو عرفتُ حتّى لغةً واحدةً بعد، لربّما دبرتُ عملاً شريفاً ذات يوم في متجر فخم في إنترلاكين. وإذا كان لأبي ما أراد، فلن أكون أكثرَ من خادمة“. وما إن خرجتِ الكلماتُ المرّة، حتّى ساورها الخزيّ. كيف أمكن أن تقولَ أموراً كهذه لروزي؟ ”لستُ ناكراً جميلاً والديك. لقد كانتُ أمك لطيفةً جداً معي اليوم...“

”إنهما يحبّانك مثل ابنة.“

”لأنّك أحببتيني مثل أخت.“

”لن يتغيّر ذلك، لأنّك لم تعودي في المدرسة. أتمنّى لو أستطيع أن أأعذر. أفضل أن أبقى في البيت وأساعد أمّي على أن أحشوّ دماغي بالمعلومات.“

فغطّت مارتا وجهها، قائلةً: ”آه روزي! كنتُ سأبذل كلّ شيءٍ لأبقى، حتّى المرحلة الثانوية على الأقلّ.“

”كان ممكناً أن أعطيكِ كُتبي.“

”لا وقتَ عندي الآن. لقد دبرّ بابا كلّ شيء“. وحدّقتُ مارتا إلى الجبال التي تكتنفها الغيومُ والتي انتصبتْ مثل أسوار سجن. لقد قصدَ أبوها أن يُبقّيها أسيرة. فهي كانت أقوى وأصحّ من ماما. وفي وسعها أن تتعلّم أسرعَ من هيرمن أو أليز. وهيرمن سيذهب إلى الجامعة. وأليز ستتزوج. أمّا هي فستبقى في البيت. فرغمَ كلّ شيء، سيكون على شخصٍ ما أن يقومَ بالعمل حين لا تستطيع ماما.

”عليّ أن أذهبَ إلى البيت. يجب أن أساعد ماما.“

وبينما هما تهبّان التلّ، أمسكتُ روزي بيديّ مارتا. ”ربّما حين ينتقل هيرمن إلى المرحلة الثانوية، سيسمحُ لكِ أبوكِ بأن ترجعي إلى المدرسة.“

”سيرسب هيرمن مجدداً. إنّ رأسه لا يستوعب الكُتب“. على الأقلّ، في المرّة التالية لن يتمكن بابا من لومها.